رأي القدس

صدام يفوز بالنقاط في الجولة الاخيرة

■ تحولت جلسات محاكمة الرئيس العراقي صدام حسين ورفاقه الى «لعنة» جديدة تضاف الى اللعنات الاخرى الكثيرة التي حلت بالامريكيين وحلفائهم منذ غزو العراق واحتلاله.

فاذا كان الهدف من هذه المحاكمة هواظهار ثمار التغيير الديمقراطي في العراق، وتقديم الاحتلال كقوة «حضارية» تؤمن بالقضاء العادل، فان الوقائع التي شاهدها العراقيون ومن خلفهم العرب المجتزأة والمراقبة عبر شاشات التلفزة قد اثبتت العكس تماماً.

جلستا اليومين الماضيين من المحاكمة كانتا مثالاً على الفوضى وانعدام النظام، وغياب الاجراءات القانونية السليمة، فالدفاع غاب عن المحكمة احتجاجاً، والمتهمون ارغموا على المثول امامها بالقوة، وبعضهم كان يقف في قفص الاتهام بملابس النوم.

القاضي الجديد رؤوف عبد الرحمن الذي حل محل رزكار امين، اراد ان يظهر حزماً في اول يوم يباشر عمله الجديد، فتصرف كقاض في احدى دول العالم الثالث المحكومة من قبل العسكر، عندما بادر بطرد المتهمين، وفريق المحامين المدافع عنهم، لانه لا يريد «تسييس» المحاكمة واعطاء الرئيس العراقي فرصة لاستغلالها لفضح الاحتلال واعوانه.

نتائج هذا الحزم المفتعل لم تأت كما اشتهى القاضي عبد الرحمن، بل صبت في مصلحة المتهمين، والرئيس صدام على وجه التحديد، وشقيقه برزان التكريتي الذي استشرس في التهجم على هيئة القضاء والادعاء العام.

ومن المفارقة ان الشهود الذين مثلوا امام المحكمة امس تراجعوا عن اقوالهم، وامتنعوا عن تقديم اي ادلة تدين المتهمين، وفضلوا التنصل من كل شيء، والقول انهم لم يكونوا مسؤولين، ولم يعرفوا بما حدث في الدجيل. ومن المفارقة ان فاضل العزاوي مساعد رئيس جهاز المخابرات فاجأ القاضي بقوله انه وقع على محضر اللقاء مع المحققين دون ان يقرأ تفاصيل اقواله المسجلة لانه لم يحمل معه نظارته في ذلك الوقت.

الرئيس صدام كسب الجولة مرة اخرى عندما دخل الى قاعة المحكمة وهو يهتف باعلى صوته «الله اكبر.. عاش شعبنا العظيم.. وامتنا المجيدة.. عاش المجاهدون» بينما هتف شقيقه برزان الذي تصرف كالنمر طوال الجلسات السابقة «يحيا العراق.. عاش العراق.. عاش البعث العظيم.. فداك امي وابي يا حزب البعث».

هذه الهتافات ربما تثير استغراب الامريكان، لانهم غير معتادين على امثالها، ولكنها قطعاً ستنزل نزول الصاعقة على حكام العراق الجدد، وبرداً وسلاماً على قلوب ملايين العراقيين الذين يحنون الى عراق ما قبل الاحتلال، حيث الامن والامان والعزة العربية والاسلامية.

وما يمكن اضافته ايضا بخصوص هذه الهتافات هو انها لم تؤكد فقط قدرة الرئيس العراقي ورفاقة على التحدي والظهور بمظهر المتماسك والمحافظ على الكبرياء الوطنية، وانما ايضا في كونها مؤشرا قويا على فشل القاضي الجديد في منع المتهمين من استغلال المحكمة كمنبر لمخاطبة المواطنين العراقيين والعرب، واذكاء المشاعر الوطنية والاسلامية في نفوسهم.

الرئيس صدام حسين بتحيته لـ«المجاهدين» اراد ان يعزز الانطباع الذي غرسه منذ الجلسة الاولى من المحاكمات، الا وهو تحوله بشكل كلي الى الاسلام، والتخلي عن الصورة العلمانية التي التصقت به وبنظام حكمه، اي «اسلمة البعث» وترسيخ ارتكازه على المبادىء والقيم الاسلامية وليس العلمانية الاشتراكية. وهو تحول جدي صادق بكل المقاييس.

المحكمة كانت مهزلة، وتفتقر الى ابسط اسس العدالة، ومع ذلك تحولت الى معركة سياسية بين محتل وبين من يقاومون الاحتلال، والنتائج حتى الان تؤكد فوز المعسكر الثاني ولكن بالنقاط.

أطلقوا سراح جيل كارول

محمد كريشان

■ السادس والعشرون من هذا الشهر هو التاريخ الأقصى الجديد للمهلة التي حددها خاطفو الصحافية الأمريكية جيل كارول في العراق لإطلاق سراح جميع الأسيرات العراقيات من سجون الاحتلال والحكومة وإلا فإنهم سيعدمونها.

كارول الصحافية الشابة ذات الثمانية وعشرين ربيعا والمختطفة منذ السابع من كانون الثاني (يناير) الماضي في عملية قتل فيها مترجمها العراقي لم يذكرها أحد ممن عمل معها أو سمع عنها إلا بكل خير معددا حبها لمهنتها وإخلاصها في أدائها والأهم من كل ذلك أنها في تغطياتها الإخبارية للشؤون العربية حتى قبل ذهابها للعراق انطلقت دائما من حرص شديد على فهم ما يجري بعيدا عن التشخيصات الجاهزة التي كثيرا ما يستسهل اللجوء إليها عدد لا بأس به من المراسلين الغربيين الموفدين إلى منطقتنا. ثم يكفي كارول أنها أقدمت على ترك الأردن الهادئ الوديع لتذهب عن طيب خاطر إلى ما أصبح بالإمكان وصفه دون مبالغة بالجحيم سواء للصحافيين المحليين أو الأجانب أو حتى مقبرتهم الأوسع في النزاعات الدولية الأخيرة.

عدد كبير من الصحافيين الأجانب لم يعرفوا في الفترة الأخيرة من العراق سوى مطار بغداد ثم فندق فلسطين الذي يقيمون فيه طوال فترة بقائهم في العراق ولا يغادرونه أبدا إلا وهم عائدون إلى ذات المطار. هؤلاء وصفهم الصحافي البريطاني الجريء روبرت فيسك بـ«صحافيي الفنادق»، إنهم لا يتحركون إلى أي مكان، يجلسون فقط في الفندق تحت الحراسة الأمريكية ويكلفون مجموعة من المصورين العراقيين والصحافيين بتصوير الأحداث وأخذ التصريحات فيما يكتفون هم بشرب الشاي والقهوة والاكتفاء بإجراء بعض المكالمات الهاتفية مع هذه الشخصية أو تلك ثم ينطلق بعضهم لكتابة وإرسال مقاله أو الظهور على شاشة تلفزيونه بخلفية قبة المسجد القريب من الفندق ليتحدث عن الأوضاع في البلاد والأجواء السياسية السائدة فيه. ربما لا أحد يلومهم على ذلك بعد ما صار الموت بضاعة يومية معروضة على قارعة الطريق في الشوارع العراقية بل وفي بيوت الله من مساجد وكنائس ولكن من المهم جدا ذكر ذلك حتى نقدر معنى أن تمتلك امرأة صحافية شابة، وفوق ذلك أمريكية، من الجسارة والنزاهة الصحافية ما يجعلها ترفض التعامل بهذه الطريقة التي تتضاعف فيها احتمالات التوظيف أو التشويه أو المبالغة أو سوء التقدير لأن الصحافي ببساطة لم ير بأم عينه كذا وكذا وإنما اكتفى برواة من يعتبرهم ثقاة يعملون معه ولا أحد يمكن أن يضمن مائة بالمائة أنهم منزهون عن الأهواء والحسابات الطائفية والسياسية في عراق اليوم.

خطف أي صحافي مرفوض في المطلق ومن حيث المبدأ سواء أحببنا ما يبعث به من تقارير أو مقتناها، فكيف إن كان هذا الصحافي من طينة جيل كارول حريصا على نقل ما يجري في العراق من معاناة يومية كما رآها بأم العين ومن آراء المواطنين وأهل السياسة كما لمسها وسجلها بنفسه في جلسات إنسانية لها أجواؤها ومعانيها. ولهذا فالرجاء ما زال قائما في أن يقدم الخاطفون على خطوة شهمة تطلق سراحها لأنها كارول لا تتحمل مسؤولية ما يفعله الجنود الأمريكيون هناك ومن والاهم من العراقيين فضلا عن أن مقتلها، لا سمح الله، لن يخدم قضية مهما كانت بل يسيء إلى أية قضية مهما بدت صارخة في عدالتها ناهيك عن أنه يعطي المجال واسعا لألسنة السوء لتقول : أنظروا إلى هؤلاء إنهم يقتلون حتى من يقف إلى جانبهم !!.

عشرة أيام كافية تماما ليتدبر الخاطفون في مثل هذا الكلام إن صادف أن طالعوه أو طالعوا مثله. أرجوكم أطلقوا سراح كارول فهي قادرة على إفادتكم حتى بعد هذه المحنة القاسية في حين سينقلب دمها لعنة عليكم وعلى البلد وهذا ما لا نرضاه لا لكم ولا لها.

الساحة اللبنانية... مفارقاتها وتوقعاتها

د. عصام نعمان *

■ لبنان إسم مكان. انه ليس دولة أو وطناً. الدولة كيان سياسي وقانوني يقوم على إقليم وشعب وسلطة ذات سيادة. الإقليم مختلفٌ بين اللبنانيين على رقعته ومساحته وحدوده. الشعب فيه شعوب بمعنى طوائف متنافسة، متناحرة، وأحياناً كثيرة متقاتلة. السلطة فيه سلطات: ثلاث، نظرياً، بحكم الدستور، وثماني عشرة، عملياً، بحكم التعددية الطائفية. وهي سلطة ضعيفة السيادة على مكوّناتها (الطوائف) في الداخل، فاقدة لها أحياناً كثيرة حيال الدول المجاورة لها في الخارج الإقليمي والدولي.

الدولة هي التي تصنع الوطن. بمعنى أنها تحوّل الإقليم، بما هو رقعة أرض، بيتاً آمناً ودافئاً للعيش والسكن، وقيمةً معنوية تستحق الحماية والتضحية من أجل بقائها ونمائها. بغياب الدولة يغيب الوطن، إذ يتحول الإقليم موطنا أو مسكنا لإقامة مؤقتة أو غير مستقرة، يحكمها عقد إيجار ذو بنود غير متوازنة تكون، غالباً، في مصلحة مالك «يملكه» مالك السلطة، الذي يتحكم بالعباد وبما يتيسر له من مساحة البلاد.

لبنان، إذاً، ليس دولة. إنه، سياسيا، نظام أو آلية لتوزع السلطة والمغانم والنفوذ على متزعمي الطوائف والجماعات والهيئات والمصالح المتفرعة عنها. وهو، جغرافيا، ساحة وسوق وسبيل: ساحة لممارسة القوة والنفوذ، وسوق للبيع والشراء والسمسرة والرهن والإرتهان، وسبيل بمعنى مَعْبرٍ للقريب والغريب، والمقيم والمغترب، والسائح والمقامر، والمفكر والمتاجر، والسياسي والمقاول.

غير أن للبنان، بمواصفاته تلك، جانبا مضيئاً وماتعا. إنه الجانب المترع بحريّة نسبية لا تقع على مثلها في دنيا العرب، وبثقافة بل ثقافات ثرّة تجعله في حال تواصل وتفاعل مع محيطه القومي والعالم الأوسع. الحرية والثقافة توأمان، وهما اللتان تعطيان لبنان سحراً ونكهة رغم كل ما يعتوره من عيوب وما ينتابه من اضطراب.

إزاء هذه الخلفية يمكننا الإستدلال على ما يجري في لبنان في هذه المرحلة التي بدأت ظهر يوم 14 شباط/ فبراير 2005 ولمّا تنتهي بعد.

إنه تاريخ إغتيال رفيق الحريري، رئيس الوزراء السابق الذي كان، دونما مبالغة، مالىء الدنيا وشاغل الناس في حياته وبعد مماته.

أن يبقى الحريري شاغل الناس بعد مماته هي إحدى المفارقات التي تضج بها حاضر لبنان وربما مستقبله أيضا. أليس مفارقة، مثلا، أن يصبح الرجل أكثر شعبيةً، بما لا يقاس، بعد الموت مما كان عليه في الحياة؟

في حياته، لم يكن الحريري زعيما لبنانيا، بمعنى شمول زعامته كل الطوائف والجماعات والأوساط. بعد إغتياله، أصبحت شعبيته شاملة، جامعة، ومتوقدة، تسهم فيها كل الطوائف ولو بمقادير متفاوتة. إنها الشعبية الوطنية، أي الشمولية، ذات الدلالات السياسية اللافتة.

من هذه الدلالات مفارقة أخرى هي ان إرثه الشعبي والسياسي لا ينحصر في فرد أو حزب أو طائفة، بل يدّعي أفراد وأفرقاء كثر ان لهم فيه حصة ونصيباً. إبنه سعد الدين قد يكون صاحب الحصة الكبرى على صعيد أهل السنّة والجماعة، لكن أحداً لا يعترف له بهذه الصفة في الطوائف الأخرى. ثمة زعماء أو متزعمون غيره في جميع الطوائف يدّعون ان لهم فيه حصة وازنة، يحاولون عبر تذكير الناس بها ان يزيدوا حصتهم من كعكة السلطة والنفوذ في لبنان بما هو ساحة وسوق وسبيل.

ومن مفارقات الساحة اللبنانية هذه الأيام ان السياسيين من ورثة الحريري كانوا من أبرز شركاء الجهة المتهمة بإغتياله. ذلك أن كلهم أو معظمهم إستظلوا سقف سورية في لبنان وأكلوا على موائدها وشربوا من مناهلها الشرعية وغير الشرعية، وباتوا اليوم من أعدى أعدائها، وبعضهم لا يتوانى عن الدعوة إلى تغيير نظامها حتى لو إقتضى الأمر إحتلالها على غرار ما حدث في العراق.

ليست آخر المفارقات التي ضج بها لبنان أن التظاهرة التي ملأت ساحة الشهداء في بيروت في ذكرى مرور سنة على غياب الحريري تمت تحت شعار «الوفاء للحريري والولاء للبنان». الحقيقة ان الوفاء للحريري كان بارزاً، حاراً، ولافتاً، أما الولاء للبنان فكان جزئياً وظرفيا. ذلك ان زعماء الجماهير المحتشدة كانوا موالين للبنان بقدر ما يريدونه معاديا لسورية ليس إلاّ. الولاء للبنان نفسه كان غائباً لأن لبنان الوطن كان غائبا، ولبنان الدولة كان منتهكاً ومستلباً. وعندما يكون الوطن غائبا والدولة مستلبة فإن الولاء يكون ظاهراً للطائفة وباطناً للمصالح السياسية والشخصية. وما ينطبق على معظم أركان تظاهرة 14 شباط / فبراير ينطبق أيضاً على معظم أركان الجماعات الأخرى.

هل يمكن الخروج من لبنان الساحة إلى لبنان الدولة والوطن؟ وما هي التوقعات والإحتمالات؟

الآمال محدودة. ذلك ان القوى المتصارعة متعددة ومتناحرة، والمصالح السياسية طاغية على الطموحات الوطنية المشروعة، والشكوك والأحقاد مقدّمة على النيات الحسنة والارادات الطيبة، والتدخلات الأجنبية متواترة ومتوافرة. كل من القوى الرئيسية يريد التسوية على شروطه، هذا إن كان ما يبتغيه تسوية وليس فرض إرادة سياسية كاملة. ثم إن الساحة تفتقد تيارا أو حزبا أو جبهة وطنية قوية، عريضة، متعددة الإنتماءات الفئوية، وذات برنامج أو رؤية معبّرة عن طموحات أكثرية اللبنانيين.

حدث مؤخرا ان تلاقى اكبر تيارين سياسيين ـ «حزب الله والمقاومة الإسلامية» من جهة و«التيار الوطني الحر» بقيادة العماد ميشال عون صاحب الأكثرية بين النواب المسيحيين الموارنة من جهة أخرى ـ على ورقة عمل مشتركة تشكّل بداية تفاهم مفتوح على القوى الأخرى القريبة في رؤاها وبرامجها. لكن ردة فعل القوى «الحريرية» على الحدث جاء فاتراً ثم تحولّ سلبياً.

يتردد ان مبادرة السعودية ومصر ستأخذ طريقها إلى الساحة اللبنانية قريبا، وان الولايات المتحدة لا تعارضها إذا كان من شأنها تخفيف حدّة التوتر بين بيروت ودمشق ووقف ما تسميه تدخلاً سورياً في شؤون لبنان الداخلية وعرقلة التحقيق في جريمة إغتيال الحريري. وثمة من يعتقد أن الأمر يتجاوز هذا الحدّ إلى تفاهم واشنطن والرياض على خطة ترمي إلى دفع سعد الدين الحريري إلى الإقتراب من محور حسن نصرالله ـ ميشال عون لإيجاد قاعدة ثلاثية سياسية للنظام السياسي البديل من النظام الذي إنهار مع إخراج سورية من لبنان. ويرى أصحاب هذا الرأي أن من شأن هذا الثالوث السياسي تهدئة المشهد اللبناني والتأسيس لدفع حزب الله تدريجيا إلى التحول حزباً سياسياً والإندماج عسكرياً في الجيش اللبناني.

غير أن مراقبين آخرين للمشهد اللبناني المضطرب يحذّرون من «بساطة» السيناريو الأول ويرجحون سيناريو آخر. فهم يتوقعون أن تتمسك إيران بخيارها الرامي إلى امتلاك قدرة نووية متقدمة الأمر الذي سيدفع الولايات المتحدة وإسرائيل إلى التفكير جدياً بإعتماد الخيار العسكري للحؤول بينها وبين امتلاك سلاح نووي. إن من شأن إعتماد الخيار العسكري ان يدفع أمريكا وإسرائيل للنظر إلى المشهد اللبناني من زاوية متطلبات معالجة المأزق العراقي والتحدي الإيراني. في هذا السياق، قد تتجه واشنطن إلى التشديد على ضرورة تغيير سلوكية دمشق تغييراً جذرياً تحت طائلة تغيير النظام نفسه إذا أمكنها ذلك من اجل أن يكون لسورية دور في ترتيب الوضع العراقي. ولعل ذلك يتطلب، على الصعيد اللبناني، تشديد الضغط على حزب الله للتخلي عن سلاح المقاومة وعن دورها. وفي حال إمتناع حزب الله عن الإذعان لهذا المخطط، فإن أمريكا قد تقوم في إطار حلف الأطلسي بانزال قوة عسكرية على طول طريق بيروت ـ دمشق ونشرها بين نقطة المصنع وراشيا في الجنوب الشرقي لقطع الإمداد اللوجستي عن حزب الله ومقاومته بغية تطويعه وحصره بين فكّي كماشة: القوة الأطلسية في الشمال والجيش الإسرائيلي في الجنوب.

بين السيناريو الأول والثاني ثمة مجال لسيناريو ثالث قوامه الضغط سياسيا لحمل الرئيس إميل لحود على الإستقالة لتمكين حكم الاكثرية النيابية (الحريري وجنبلاط وجعجع) من تشديد قبضتها على كل مرافق «الدولة» وإخراج حزب الله من الحكومة وعزله سياسيا، ثم محاولة نشر الجيش اللبناني على طول الحدود مع إسرائيل. إذا إمتثل حزب الله لهذه السياسة تترسخ التهدئة، وإذا رفض ولجأ إلى السلاح لمنع إنتشار الجيش اللبناني فإنه يكون قد ضحّى بهويته ودوره كمقاومة وأضحى ميليشيا. وفي هذه الحال، فإنه يفقد الكثير من وهجه وقوته بل قد يفسح في المجال للتصدي له داخلياً وخارجياً من اجل تجريده من السلاح.

هذه السيناريوهات ليس سهلة بطبيعة الحال. ذلك أن قدرة النظام السوري على الصمود بل على الإيذاء ليست بسيطة، كذلك الأمر بالنسبة إلى حزب الله. أخيراً وليس آخراً، فإن الولايات المتحدة نفسها قد تتردد كثيراً في إعتماد الخيار العسكري ضد إيران نظراً لتكلفته العالية، سياسياً واقتصادياً، الأمر الذي يقلل بدوره من إحتمال إعتماده نهجاً في لبنان قد يخالطه عنفٌ شديد.

الصراع ما زال في بدايته.

* كاتب وسياسي من لبنان

حوار الطرشان بين الاسلام والغرب

د. سعيد الشهابي *

■ فتحت قضية الرسومات الكاريكاتورية المسيئة لرسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام ملفات حيوية عديدة من بينها مفاهيم الحرية خصوصا حرية التعبير، والسلم الاجتماعي، والحوار بين الاديان واثر اطروحات ما بعد الحداثة على التوازن السياسي في السياسة الدولية وقضايا أخرى لا تقل حيوية. ومن بين القضايا الكبرى التي أبرزها اللغط الشديد في اثر ذلك، موضوع العلاقات بين الاسلام والغرب. هذا الموضوع، برغم ما يبدو من سهولة مناقشته، يحتوي عناوين فرعية عديدة، تستدعي التعاطي معها بقدر من الموضوعية والجدية. فهو اولا موضوع جديد ـ قديم يطرح عادة في اوقات الازمات التي تعمق الشكوك وتحاكم النوايا. وثانيا، فهو موضوع فضفاض ينطوي على ابعاد كثيرة وعناصر متعددة، فكلمة العلاقات لها وجوه عديدة: ثقافية ودينية وسياسية واقتصادية وحضارية وتاريخية، وكلمة الاسلام تحمل ايضا ابعادا غير قليلة. فما هو الاسلام موضوع البحث؟ أهو الدين؟ أم المسلمون؟ أم الدول الاسلامية؟ وعنوان الغرب هو الآخر لا يقل سعة وتشعبا. فما هو الغرب؟ أهو المسيحية؟ أم أوروبا؟ أم أوروبا وأمريكا وربما روسيا أيضا؟ وثالثا فان السجال بشأنه نادرا ما يؤدي الى نتائج عملية ملموسة نظرا لتشعب القضايا التي تستحق المناقشة ضمن الاطر المذكورة. ورابعا: من يمثل الاسلام؟ ومن يمثل الغرب؟ أهم السياسيون؟ أم القادة الدينيون؟ ام المثقفون والكتاب؟ ام وسائل الاعلام؟

الملاحظ ان الاهتمام بالحوار بين الاسلام والغرب محصور بالطرف الاسلامي. ففي الشهر الماضي كانت هذه القضية هي موضوع الحوار بالصالون الثقافي للشباب بالمركز الثقافي اليمني بالقاهرة من خلال محاولات تركيا الانضمام للاتحاد الأوروبي. وفي الاسبوع الماضي عقد بالعاصمة الماليزية مؤتمر دولي بعنوان «من يتحدث عن الاسلام ومن يتحدث عن الغرب» تحت اشراف معهد الدبلوماسية والعلاقات الخارجية الماليزي، وقسم حوار العالم الاسلامي وامريكا والغرب التابع لجامعة نيويورك. جاء المؤتمر في ضوء التوتر الخطير في العلاقات الدولية في اثر أزمة الرسومات المذكورة. وقد تصدر كل من تركيا وماليزيا الدعوة للحوار وتجاوز تلك الازمة وفتح قنوات التواصل بشكل أكثر فاعلية. وانعكست آثار تلك الأزمة على خطابات المشاركين الذين بلغ عددهم ستين شخصية سياسية وثقافية ودينية واقتصادية، بالاضافة الى متخصصين في قضايا الاديان. المؤتمر استمر يومين وشهد مناقشات ساخنة سواء في الكلمات التي القيت ام في النقاشات والتعقيبات والتوصيات. رئيس الوزراء الماليزي عبد الله أحمد بدوي أكد ان هوة سحيقة أصبحت تفصل بين الغرب والعالم الاسلامي، وان المسلمين يشعرون بالاحباط بسبب سياسة الغرب في ما يتعلق بالشرق الاوسط وافغانستان. وقال ان كثيرا من الناس في الغرب ـ من جانبهم ـ يرون الاسلام مساويا للعنف، وينظرون إلى الشخص المسلم باعتباره مشروعا للارهاب، ودعا الجانبين الى وقف تشويه أحدهما الآخر، وكبح التطرف واشاعة التسامح والاعتدال. المؤتمر ضم شخصيات مرموقة من بينها الرئيس الايراني السيد محمد خاتمي الذي يتولى حاليا رئاسة المؤسسة الدولية لحوار الثقافات والحضارات.

الملاحظ ان الحكومات الغربية لا تولي اهتماما متميزا للقضايا من هذا النوع، ولا يمثل التعامل معها اولوية لديهم لاعتبارات عديدة من بينها عدم الاكتراث بمشاعر المسلمين ما لم تتحول تلك المشاعر الى أزمة ذات أبعاد سياسية خطيرة. وكثيرا ما كان التعاطي مع تلك الأزمات بعقلية أمنية، وأساليب توحي بالمخاطر الامنية من تواجد الجاليات المسلمة في الغرب. ولم يعد خافيا دور اللوبي الصهيوني في اثارة مشاعر الخوف لدى الغربيين من وجود المسلمين في الدول الغربية. في بداية أزمة الرسومات لم تبد الحكومات الغربية اهتماما جديا بالمشكلة الا بعد ان تفاقمت واصبحت تهدد المصالح الغربية في مناطق واسعة من العالم. ولذلك صدرت تصريحات عن بعض الزعماء تطالب بضبط حرية التعبير بحيث لا تؤدي الى اثارة المشاعر. فكوفي عنان يقول: «انا افهم شعور اصدقائنا المسلمين الذين يرون ان الرسوم تمس بدينهم كما احترم حرية الصحافة، لكن حرية الصحافة بالطبع ليست مطلقة، بل يجب ان تلازمها المسؤولية والتفكير السليم». اما الفاتيكان فقد قال في بيان اصدرته حاضرته ان حرية التعبير لا تعني الحرية في اهانة المعتقدات الدينية. وقال جواكين نافارو فالز الناطق باسم الفاتيكان: «ان التعايش الانساني يتطلب جوا من الاحترام المتبادل يشجع على السلام بين البشر والامم». مضيفا: «إن حق حرية التعبير لا يعني حق تحقير مشاعر المؤمنين الدينية». وثمة تصريحات عن جهات كثيرة تسعى لتخفيف الأزمة والحد من آثارها التي أحدثت حالة استقطاب على الصعيد الدولي لم يحدث منذ فترة طويلة. فليست هناك قضية شهدت هذا الزخم الاحتجاجي الذي انتشر من شرق الدنيا الى غربها، وتعددت اساليبها، وأدت الى أضرار في الارواح والمنشآت.

لا شك ان قضية الرسومات كانت فصلا مؤسفا في العلاقات بين الغرب والعالم الاسلامي، ولا يستبعد ان ثمة جهات تقف وراء تهدف لعرقلة تلك العلاقات بشكل جذري، والسعي لتوجيهها لغير صالح اي من الطرفين. فحالة الاستقطاب الفكري او الديني او السياسي كانت في السابق وراء الكثير من الازمات التي انتهت بمواجهات دموية او تغييرات سياسية استراتيجية، وأطاحت بأنظمة. وتجدر الاشارة الى ان من العوامل التي مهدت الطريق للثورة الاسلامية في ايران كان مقال كتبه وزير الاعلام في حكومة الشاه في 1977 اهان فيه شخص الامام الخميني، فخرجت مظاهرات احتجاجية محدودة في البداية، قمعتها الشرطة وقتلت بعض المشاركين فيها. وفي اربعينية الضحايا اقيمت مسيرات اخرى قمعت هي الأخرى، وتوالت المسيرات بسبب قمع كل اربعينية بشكل متواصل، حتى تحولت الى مظاهرات يومية ادت في النهاية الى سقوط نظام الشاه. ومن بين اسباب استمرار الاحتجاجات ضد الرسومات المسيئة للرسول عليه افضل الصلاة والسلام، اعادة نشرها في صحف ومجلات غربية بشكل استفزازي. وهنا تبدو القضية مدبرة ومؤسفة، ولا يمكن ان تساهم في خفض التوتر او تطوير العلاقات بين الغرب والعالم الاسلامي، كما لا يمكن ان تكرس الامن والاستقرار في العالم. وحتى هذه اللحظة، لم يبادر الغربيون لعقد اجتماعات او مؤتمرات جادة تجمع ممثلي الجاليات الاسلامية وتضم سياسيين وكتابا واعلاميين من كافة اطياف المجتمعات الغربية. فالتواصل هو السبيل الافضل لاحتواء الازمات واعادة زرع الثقة وبناء الجسور بين الفرقاء. ان علاقات الغرب مع الاسلام لا تنحصر بوجود الجاليات الاسلامية في بلدانه، بل هي ممتدة جغرافيا الى كافة اصقاع العالم الاسلامي، وتاريخيا الى عمق الحقب التاريخية التي شهدت مظاهر الاستعمار وما سبقها من فترات التوتر في العلاقات خصوصا في فترات الحروب الصليبية. والشعور بضعف الموقف السياسي الغربي منذ ان بدأت المشكلة عبر عنه الامين العام لمنظمة المؤتمر الاسلامي البروفيسور أكمل الدين احسان الذي أعرب عن خيبة أمله في نجاح مشروع حوار الحضارات والاديان في الوقت الراهن الذي يشهد موجة غضب عارمة تسود العالم الاسلامي. وقال ان حوار الحضارات والأديان الذي كان قائما لم يثمر شيئا رغم الجهود التي بذلتها منظمة المؤتمر الاسلامي موضحا انه تم التوصل في نهاية المطاف الى التفكير في اسلوب جديد فيما يخص هذا الشأن. وأضاف ان الأمة الاسلامية كانت تنتظر من المنادين بحوار الحضارات والاديان من الطرف الآخر ان يقولوا كلمة حق بقضية الرسوم المسيئة للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الا انهم لم يعلنوا عن مواقفهم الا بعد اربعة شهور ونصف من نشر هذه الصورة وبعد ان ثار الشارع الاسلامي وبدأت مقاطعة منتجاتهم.

علاقات الغرب والعالم الاسلامي تمثل عبئا على الطرفين. فهي اما ان تكون علاقات قائمة على اسس من الاعتراف والاحترام المتبادلين، او استمرارا لنمط التعامل القديم عندما كان الغرب يهيمن على العالم الاسلامي وينطلق على اسس من التعصب الديني والشعور بالتفوق العلمي والحضاري. واذا كانت هذه العلاقات قد قامت في اغلب حقبها على الاساس الثاني، فان الصحوة الاسلامية التي انطلقت في العقود الثلاثة الاخيرة دفعت الغرب الى تبني سياسات جديدة تميزت بالحساسية المفرطة ازاء تلك الصحوة. وساهمت ظاهرتا التطرف والارهاب اللتان تبلورتا بشكل تدريجي منذ مطلع التسعينات، في تعميق الشكوك بين الطرفين، وهي شكوك تتعمق مع كل حدث كبير. وهناك عوامل اخرى تساهم في حالة الاستقطاب والتشكيك المتواصل في النوايا والخطط. فليس جديدا القول بان اللوبي الصهيوني في العواصم الغربية، خصوصا واشنطن، يسعى لتعميق الخلاف بين الغرب والعالم الاسلامي، وتضخيم مسألة وجود المسلمين في الدول الغربية. فمثلا نشرت صحيفة «هاآرتس» الاسرائيلية يوم الخميس الماضي مقالا للكاتب عادي شوراتز دعا فيه البلدان والشعوب الاوروبية الى التعامل بقسوة مع المسلمين الاوروبيين واستخلاص العبر من ردود الفعل في البلدان الاسلامية على الرسومات المسيئة للرسول (ص). وحذر الغرب واوروبا من مغبة تجاهل ازدياد عدد السكان المسلمين في اوروبا وانتشار الثقافة الاسلامية واللغة العربية في البلدان الاوروبية، مؤكدا ان المشكله الحقيقيه وهي وجود عدد كبير من المسلمين في اوروبا.

يضاف الى ذلك السعي الغربي المتواصل لحرمان المسلمين من التكنولوجيا العلمية وغلق الباب بوجه الطلاب المسلمين من الدراسات العلمية المهمة، وابقاء التكنولوجيا ملكا خاصا للدول الصناعية الغربية على وجه الخصوص. ان من الضروري استيعاب ضرورة عولمة العلم والاداء التكنولوجي وعدم استعمال ذلك سلاحا بوجه الدول النامية، وعدم حصر ظاهرة العولمة على الجوانب التي تفيد الغرب وتضر بمصالح الدول النامية. ويشعر المسلمون بان لسياسة الحرمان العلمي هذه آثارها المدمرة على العلاقة بين الغرب والعالم الاسلامي، وان ذلك مصدر حقيقي للشك والريبة المتبادلين. فظاهرة العولمة التي انتشرت في العقد الاخير لم تساعد الدول العربية على تطوير نفسها، بل ادت الى توسع ظاهرة الاستهلاك في المجتمعات الاسلامية، وتقلص اهتماماتها بمجالات العلم والتكنولوجيا، وحصر اقتصاداتها بعائدات النفط وعدم توسيع مصادر دخلها. وهناك خطة مستمرة لمحاصرة العالم الاسلامي علميا وتكنولوجيا، وغلق المعاهد والجامعات الغربية امام الطلبة الباحثين عن مجالات علمية متطورة. ان ظاهرة العولمة ايجابية فيما لو سعت لتوسيع دائرة المستفيدين منها من جهة، وتوسيع آفاقها ودوائرها من جهة اخرى لتشمل قضايا مثل عولمة العدالة، وعولمة الديمقراطية، وعولمة العلم والمعرفة والتكنولوجيا. فمن اخطر الظواهر ان تتكرس حالة الاستقطاب بين المتخمين والجياع، وبين الانظمة السياسية الحرة والشعوب التي تعيش في ظل القمع والاستبداد المدعوم من الغرب بعيدا عن القيم الانسانية. ضروري ايضا البحث عن حالة التوازن في دورة الانتاج والتوزيع على صعيد التطوير الاقتصادي للبلدان غير المتطورة. وفوق ذلك يجدر بالغرب الاعتراف باحترام الاديان الاخرى، خصوصا الاسلام الذي يسير على هداه اكثر من خمس سكان العالم.

العلاقات بين الغرب والعالم الاسلامي اصبحت اليوم تتعرض لامتحانات صعبة، يتعين على الطرفين الاهتمام بها والبحث فيها بالشكل الذي يجعل مهمة تطوير العلاقة ممكنة. ولكي يتم اعادة الحياة الى مشروع الحوار بين الاسلام والغرب بعد ان تحول الى حوار طرشان، فمن الضروري تحديد سقف للحرية في أوروبا ودول العالم مثل القوانين التي تمنح مهاجمة السامية وتمنع مهاجمة الأجانب والأعراق. فلابد أن يكون هناك قوانين صارمة تحمي المسلمين من هذه الهجمات الشرسة التي يتعرضون لها حاليا. والدول العربية والاسلامية مطالبة بالسعي لاستصدار قرار من الجمعية العامة للأمم المتحدة ينص على تجريم الاعتداء على الأديان السماوية وحمايتها من أي تطاول. وفي المقابل مطلوب من جماهير الأمة الاسلامية ضبط النفس وعدم تحويل الغضب وحال الاستياء وردود الأفعال الى أعمال عنف لا تأتي بالنفع على الأمة. ان حالة التوتر السائدة اليوم لا تخدم مصلحة الحوار بين شعوب العالم وأممه. فقد اصبح الحوار غير ذي جدوى ما دام الطرف الآخر يصر على التشبث بمقولة «حرية التعبير» التي تطلق بدون حدود عندما يكون الاسلام والمسلمون هو الطرف المتضرر منها، وتحدد بشكل قانوني صارم عندما تستهدف اطرافا أخرى تملك نفوذا اعلاميا وسياسيا واسعا. وفي ضوء التجارب المريرة منذ بداية الألفية الثالثة، اصبحت مهمة الحوار شاقة للجميع، ولم يعد كافيا اطلاقها كشعار فضفاض لا يصدقه الواقع ولا يؤدي الى السلام الحقيقي بين الاطراف المعنية به. ان التخلي عن عقلية الاستعلاء والاستكبار والحرب والقهر ضرورة لانجاح مشروع الحوار، وعلى الغرب (ممثلا بالمؤسسات السياسية والاعلامية والدينية) ان يبدي الاستعداد لذلك، بعد ان اصبحت الكرة في مرماه.

* كاتب وصحافي بحريني يقيم في لندن

القدس العربي
يومية سياسية مستقلة
تطبع في لندن ونيويورك وفرانكفورت
وتوزع في جميع انحاء العالم

الاشتراكات:
الاشتراك السنوي 450 جنيها استرلينيا في عموم بريطانيا و 750 دولارا امريكيا للوطن العربي وخارج بريطانيا بما في ذلك اجور البريد.

الناشر:
مؤسسة القدس العربي للنشر والاعلان

رئيس التحرير:
عبد الباري عطوان

المقر الرئيسي (لندن): 164/166 كنج ستريت، همرسميث، لندن دبليو 6 او كيو يو
هاتف: 8008 741 ـ 0208 (6 خطوط) ـ
فاكس: 8902 741 ـ 0208 أو 7637 748 ـ 0208
مكتب القاهرة: 43 أ شارع قصر النيل ـ الدور الاول ـ شقة رقم (2). هاتف/فاكس: 3901523(202)
مكتب المغرب: 80 شارع فال ولد عمير شقة 7 الطابق الرابع ـ الرباط. هاتف/ فاكس: 770594(37 212)
مكتب عمان: شارع الصحافة مجمع البداد التجاري الطابق الرابع.
هاتف: 5337920 فاكس: 5337928 (9626)
مكتب باريس: هاتف ـ فاكس: 57364 420 (331)

Head Office (London): 164-166 King Street, Hammersmith, London W6 0QU England
Tel: 0208-741 8008 (6 Lines) **Fax:** 0208-741 8902 / 748 7637
email: ***alquds@alquds.co.uk*** * *Internet*: ***www.alquds.co.uk***
Cairo Office: 43 a Kasser Al Neel St, First Floor, Flat No (2).
Tel/Fax: (202) 3901523
Morocco Office: 80 Fal Ould Omeir Str. Flat No.7 - Rabat - Morocco
Tel/Fax: (212 37) 770594
Amman Office: Al Sahafa St. Badad Business Complex.
Tel: (9626) 5337920 **Fax**: 5337928
Paris Office: Tel / Fax: (331) 420 57364

Al-Quds Al-Arabi
daily Independent News Paper
Published In London, New York and Frankfurt by Al Quds Al- Arabi Publishing LTD
Circulated in Europe, Middle East, North Africa and North America.
Editor In Chief
ABDEL BARRI ATWAN